

المهندس مروان الفاعوري - الوسطية : التأصيل – والتطبيق / المنتدى العالمي للوسطية نموذجاً

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.
فإن معرفة الغلوّ أمر حتمي على الأمة، حتى تعرف ما بها، وتكتشف ما يتهدها، فهي تعاني مثلث الغزاة والغلاة والمستبدين، فكم من دول سقطت نتيجة غلوّ حكوماتها، حتى لم تجد من يعينها، ولعل بلادنا عرفت منهج الوسطية، فأبت إلا أن تكون وسطية كما أراد لها الله.
ولسوء الحظ لم تتل تيارات الوسطية السياسية والفكرية، نفس القدر من الاهتمام البحثي الذي نالته تيارات التطرف.

ولا تزال تيارات التطرف قائمة لسببين:

- 1- أنها تعطي الحكام المستبدين مبرراً لاستمرار الأحكام العرفية داخلياً.
- 2- أنها تعطي المبرر للقوى الاستعمارية باستمرار التدخل الخارجي والاحتلال بهدف مصادرة إمكانات الأمة الاقتصادية والسياسية.

وقد شهدت الساحة السياسية العربية خلال العقدين الماضيين حضوراً مكثفاً لدعاة الوسطية ذات الطابع السياسي، منها على سبيل المثال حركة النهضة التونسية، والعدالة والتنمية في المغرب، وحزب الوسط الإسلامي السوداني، وحزب الوسط الإسلامي الأردني الذي تأسس عام ٢٠٠١، وحزب «الوسط الجديد» في مصر، ومنتدى الوسطية السعودي، والمنتدى العالمي للوسطية في عمّان، والمركز العالمي للوسطية في الكويت.

وبوجه عام يمكن القول إنّ ثمة تغيرات جدية أدخلها دعاة الوسطية الإسلامية على خارطة الفكر الإسلامي المعاصر، بحيث يمكن النظر إلى هذه المدرسة باعتبارها «الطرح الثالث» لتجربة العمل الإسلامي التي عرفها العالم العربي طوال القرن الماضي.

إن منهج تيار الوسطية يعبر عن درجة متقدمة من الوعي السياسي «الإسلامي» طالما افتقدته الساحة العربية منذ نشأة الدولة الوطنية قبل نصف قرن ونيف، وهو الذي تعرض لقدرة كبير من التشويه بفعل الصراع الضاري بين الدولة وتيارات التطرف الذي استمر قرابة عقود ثلاثة (من السبعينات وحتى نهاية التسعينات)، ما أثار الشكوك حول فرص «إنصاج» تجربة سياسية «إسلامية» مدنية.

ومن جهة ثانية تمثل هذه التيارات خروجاً عن التصنيف التقليدي لتيارات الإسلام السياسي بين معتدل وعنيف، كي تضيف معياراً جديداً للتصنيف يتمثل في الكفاءة السياسية، أي قدرة هذه المدرسة على استيعاب مفاهيم الديمقراطية والعمل المدني، والتعاطي الواقعي في ممارساتها السياسية.

وهي في الوقت نفسه تتمتع بمرجعية دينية تحكم رؤيتها لذاتها وللآخرين، شأنها في ذلك شأن التيارات الإسلامية المعتدلة إلا أنها لا تنطلق في ممارستها السياسية من خلفية دعوية، ولا تمثل المرجعية بالنسبة إليها سوى «حاضنة حضارية» تُسَعِّج جميع صنوف الاختلاف السياسي والديني داخل الوطن الواحد.

ومن جهة ثالثة، تقدم هذه المدرسة رؤية متميزة لطبيعة العلاقة بين الدولة والمجتمع، تمكنت خلالها من حل تلك الإشكالية التاريخية التي لطالما لازمت جميع تيارات الإسلام السياسي. وتجاوزت بها أطروحات العديد من التيارات الإسلامية «المعتدلة»، خصوصاً في ما يتعلق بقضايا المواطنة والمرأة والنظرة للغرب.

ومن جهة أخيرة، تتمتع هذه المدرسة الوسطية بدرجة عالية من المرونة الفكرية، تسمح لها بتطوير أفكارها وآلياتها، وتجعلها في حالة تقدم دائمة واشتباك مجدد ومتجدد مع قضايا العصر، وذلك مقارنة بمثيلاتها «المتفوقة» داخل جدران «النص الجامع»، دون القدرة على تجاوزها، ما أدى إلى جمودها السياسي والفكري، وقلل من فرص إدماجها في الحياة المدنية.

لكن هل يمكن النظر لتيارات الوسطية الإسلامية، باعتبارها وصلاً لمشروع النهضة العربية الذي طرحه الآباء المؤسسون، النورسي والأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا؟

يمكن القول إنَّ المدرسة الوسطية الإسلامية الحديثة قد تعد أحد أشكال «الإحياء» الديني، ولكن في صورته التجديدية، بيد أن أبرز ما يميز هذه التيارات، عما طرحه مفكرو النهضة «الأوائل» أنها صهرت وقدمت، ولو نسبياً، كثيراً من الثنائيات التوفيقية، والتي تراوحت ما بين الأصالة / المعاصرة، التراث / التحديث، التقليد / التجديد. ساعدها في ذلك الانطلاق من أرضية واقعية، رسختها عقود «الحصاد المر» للخبرة العنيفة التي مرت بها التجربة الإسلامية بمختلف أطيافها على مدار العقود الخمسة الماضية، كما أنها تفادت الإغراق في الأطروحات «الرومانسية» التي عطلت المشروع النهضوي العربي في بداياته الناصعة.

لم يكن غريباً، والحال كهذه، أن تحظى فكرة «عالمية» الإسلام، بوصفه إطاراً حضارياً، بمكانة مركزية في أفكار وبرامج هذه المدرسة، ما خلَّصها من مأزق الدمج «القسري» بين استحقاقات الهوية الذاتية (الخصوصية الحضارية)، وسيولة أفكار التحديث والعولمة، وذلك عبر تبني فلسفة «المشترك الإنساني الواحد» على نحو ما جاء به برنامج حزب الوسط الأردني و«الوسط الجديد» في مصر.

نظرة عابرة على أوضاع المدرسة الوسطية الإسلامية، تكشف مدى الحضور المتواضع لهذه التيارات داخل مجتمعاتها العربية، وذلك باستثناء حزب العدالة والتنمية في المغرب الذي يلقى حضوراً سياسياً متزايداً منذ فوزه الملحوظ في انتخابات عام ٢٠٠٢ و ٢٠٠٧.

في حين تبدو الحاجة ملحة الآن إلى تدعيم حضور هذه التيارات في العالم العربي، ليس فقط لنجاح معظمها في فك الكثير من شفرات العمل السياسي «الإسلامي» التي استعصت، ولا تزال، على كثير من التيارات الدينية الأخرى، وإنما أيضاً لكونها، بمشروعها الحضاري المشار إليه آنفاً، تمثل خط الدفاع الحقيقي أمام الهجوم «المنهجي» الذي يمارسه الغرب منذ وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، تجاه القيم والثقافة الإسلامية. فضلاً عن كونها تطرح نموذجاً سياسياً «إسلامياً» متقدماً يتفادى أخطاء التيارات السالفة، ويستوعب متطلبات الوضع الراهن بكل تعقيداته الفكرية والسياسية والقيمية، وإذا كان ما تقدم يشكل آفاقاً للرؤى والطموح فإن هذه الرؤى تستند إلى تأصيل عميق للوسطية مرتبط بالقرآن الكريم والسنة المطهرة.

من معاني الوسطية

الوسطية لغة: بناء صحيح يدل على العدل والنصف وأعدل الشيء أوسطه ووسطه. وهي تأتي بفتح السين وسكونها فتقول وسط، وسط - وعندما تأتي بالتسكين تعني ظرفاً بمعنى (بين) فأوسط الشيء أفضله وخياره.

أصول قاعدة التوسط في التصور الإسلامي حسب منطوق الآيات القرآنية الكريمة:

في القرآن الكريم: في كتاب الله خمس آيات في مادة (وسط) هي على الترتيب:

- ١- ((قَاتِرْنَ بِهِ نَعْفًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا)) (العدايات ٤ - ٥).
- ٢- ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)) (البقرة ١٤٣).
- ٣- ((فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)) (المائدة ٨٩).
- ٤- ((قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)) (القلم ٢٨).
- ٥- ((حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)) (البقرة ٢٣٨).

الوسط هو العدل قال تعالى: ((قَالَ أَوْسَطُهُمْ)) (القلم ٢٨) أي أعدلهم والعدل هو الذي لا يميل إلى أحد الطرفين من الخصماء، وإذا قيل رجل أوسطنا نسباً، فالمعنى أكثرهم فضلاً كواسطة القلادة وأصل هذا أن الأتباع يتحوشون الرئيس فهو وسطهم وهم حوله، إن الخلق الفاضل إنما سمّي وسطاً لا من حيث إنه خلق فاضل فحسب بل من حيث إنه متوسط بين رذيلتين هما طرف الإفراط والتفريط - مثل الشجاعة فإنها خلق بين الجبن والتهور قال صلى الله عليه وسلم خير الأمور أوسطها - في تفسير قوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)) (البقرة ١٤٣).

ومعروف ما رواه الطبري بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)) (البقرة ١٤٣). قال: «عدولاً»^(١).

وقد ساق الطبري عدداً من الروايات في هذا المعنى. ثم ذكر تفسير هذه الآية منسوباً إلى بعض الصحابة والتابعين، كأبي سعيد ومجاهد وغيرهما، حيث فسروها بـ «عدولاً». وكذلك نقل تفسير ابن عباس لها «جعلكم أمة عدولاً». وقال ابن زيد: هم وسط بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الأمم.

١- قال الإمام الطبري:

وأما الوسط فإنه في كلام العرب: الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه، أي متوسط الحسب إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه.

وهو وسط في قومه وواسط، قال زهير بن أبي سلمى في الوسط:
هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

قال: وأنا أرى الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء، الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار.

وأرى أن الله - تعالى ذكره - إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها.

وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل - كما سبق - وذلك معنى الخيار، لأن الخيار من الناس عدولهم^(٢).

٢- قال ابن كثير^(٣):

وقوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)) (البقرة ١٤٣). الوسط هنا: الخيار والأجود، كما يقال في قريش: أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً.

ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها.

وروى الإمام أحمد^(٤) عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)) (البقرة ١٤٣). قال الوسط: العدل،

فَدْعَوْنَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ، ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ ^(٥).

٣- وقال ابن الجوزي في تفسيره لهذه الآية:

سبب نزولها أن اليهود قالوا: قبلتنا قبلة الأنبياء، ونحن عدل بين الناس، فنزلت هذه الآية.

والوسط: العدل، قاله ابن عباس وأبو سعيد ومجاهد وقتادة.
وقال ابن قتيبة: الوسط: العدل الخيار، ومنه قوله تعالى: ((قَالَ أَوْسَطُهُمْ)) (القلم ٢٨)، أي: أعدلهم وخيرهم.

وأصل ذلك أن خير الأشياء أوسطها، والغلو والتقصير مذمومان.
قال أبو سليمان الدمشقي: في هذا الكلام محذوف، ومعناه جعلت قبلتكم وسطاً بين القبلتين، فإن اليهود يصلون نحو المغرب، والنصارى نحو المشرق، وأنتم بينهما ^(٦).

٤- قال صاحب المنار:

((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)) (البقرة ١٤٣). هو تصريح من قوله: ((وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)) (البقرة ٢١٣). أي على النحو من الهداية ((جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)).
قالوا: إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تقصير وتقریط، وكل من الإفراط والتقریط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي المتوسط بينهما ^(٧).

٥- وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي:

((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)) (البقرة ١٤٣). أي: عدلاً خياراً. وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء بين من غلا فيهم، وبين من جفاهم، بأن آمنوا بهم كل على الوجه اللائق بذلك.
وتبرز الوسطية في سلوك المسلمين في:

١- الشعائر: في نحو قوله تعالى: ((وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تُخَافُوا بِهَا وَابْتَغُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)) (الإسراء: ١١٠).

إن وسطية الشعائر ماثلة في قواعد التشريع، إذ إن العديد من القواعد الفقهية التي وضعها الأئمة الأعلام لضبط الفروع الفقهية جاءت مُعبّرة بشكل واضح عن هذه الوسطية. ومن ذلك:

• المشقة تجلب التيسير.

- الضرورات تبيح المحظورات.
- ارتكاب أخف الضررين.
- الاضطرار يرفع البراءة.
- الضرر الخاص يتحمل لصالح رفع الضرر العام.
- الأصل في الذمة البراءة.
- الأمر إذا ضاق اتسع.
- فقه الأولويات.
- فقه الأقليات.

فهذه القواعد تحقق التوازن الدقيق والضبط المحكم الذي يعصم من الميل نحو أحد طرفي المعادلة. إنه التوازن الذي أقام الله عليه بناء الكون كله: ((وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)) (الحجر: ١٩). إن وسطية الشعائر في الإسلام يجسدها قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) (الجمعة: ٩-١٠)، فالتكاليف ليست كثيرة ولا شاقة، كما أنها لا تتعارض مع متطلبات الحياة من سعي لرزق، وكدح لتأمين معاش، ونصب لتوفير حاجة، وجهد لتحقيق عمارة، وبذل لقيادة ركب، وإنشاء حضارة.

٢- الإنفاق: في نحو قوله تعالى: ((وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)) (الفرقان : ٦٧). وقوله تعالى: ((وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)) (الإسراء: ٢٩).

٣- المعاملات: في نحو قوله تعالى: ((وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)) (الأنعام: ١٥٢).

٤- القضاء: في قوله تعالى: ((فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا)) (الحجرات: ٩).

٥- الخيرية: في قوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)) (البقرة: ١٤٣). وقوله تعالى: ((قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ أَنِّي تَسْبَحُونَ)) (القلم: ٢٨).

التوسط في المعاش بين الارتواء في أحضان الدنيا وبين الرهبانية المنقطعة: ((وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)) (القصص: ٧٧).

٦- الزمان: في قوله تعالى: ((حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)) (البقرة: ٢٣٨). وهاهنا وفي وسطية زمان لا يضيرها إن كان المعنى صلاة الفجر أو صلاة العصر (وهو الراجح).

٧- والمكان: في نحو قوله تعالى: ((فَوَسَّطْنَا بِهِ جَمْعًا)) (العاديات: ٥). بالإشارة هنا إلى وسطية المكان إذ بعثته الخيل وبعثته في مكان ما - توسطت جمعاً ففرقته وبعثته.

موقع الوسطية في الشريعة الإسلامية

إن العقيدة الإسلامية قائمة على الوسطية بين الروحانية والمادية، بين العقلانية والوجدانية، والموزونة الفردية والجماعية، ويصحب الغلو دائماً جهل وتعصب وهوى. لأن الوسطية منطقة تقع بين أقصيين متضادين منحدرين من ذات اليمين ومن ذات الشمال وهما طرفان متباعدان أوسطهما القمة المرتفعة بينهما.

إن الوسطية مرتبطة بالاستقامة، ومرتبطة باليسر ورفع الحرج لأن التنطع والتشديد حرج من جانب عسر التكليف، والإفراط أو التفريط حرج في ما يؤدي إليه من فساد ورقة في الدين وتعطيل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشرع، إن اليسر يعني اللين وهو ضد العسر - ورفع الحرج يعني كل ما أدى إلى مشقة زائدة في البدن أو النفس أو المال حالاً أو مالاً. قال تعالى: ((وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)) (الحج ٧٨) - قال الضحاك في تفسيرها جعل الدين واسعاً ولم يجعله ضيقاً. لقد كان قول الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الحج الأكبر عندما كان يسأل عن ترتيب مناسك الحج «افعل ولا حرج». قال تعالى: ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)) (البقرة ١٨٥). ((وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى)) (الأعلى ٨). ((فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)) (الانشراح ٥ - ٦). ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)) (الطلاق ٤). ((سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)) (الطلاق ٧). وفي رفع الحرج ((وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)) (الحج ٧٨). ((مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) (المائدة ٦). ((لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)) (البقرة ٢٨٦). ((رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا)) (البقرة ٢٨٦). ((رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)) (البقرة ٢٨٦). ((لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)) (الأعراف ٤٢). ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)) (التوبة ١٢٨).

كما أن الوسطية تعني العدل والحكمة ((أَمَّةٌ وَسْطَاءُ)) (البقرة ١٤٣). أي عدلاً وقد جاءت الوسطية في أصل الاعتقاد وفي التشريع والتكليف وفي العبادات وفي الشهادة والحكم على الناس، قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ لَمْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)) (النساء ١٣٥) ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) (المائدة ٨). ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)) (النساء ٥٨). ((وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ)) (النحل ١٢٦). ((وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)) (الإسراء ٣٣). والوسطية أمرٌ بمعروف ونهي عن منكر وهذا الأمر يكون باللين ((اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)) (طه ٤٣ - ٤٤). ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)) (النحل ١٢٥). والحكمة هي الفهم والعقل والعقول المسورة والألباب الرزينة وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهي فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي. وهي أي الوسطية في الأخلاق والمعاملة ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) (القلم ٤). ((وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا)) (لقمان ١٨). ((وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)) (الفرقان ٦٣). وهي في كسب المال وإنفاقه ((وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)) (الفرقان ٦٧). ((وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)) (الإسراء ٢٩). وهي وسطية في مطالب النفس وشهواتها ((قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)) (الأعراف ٣٢). ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا)) (البقرة ١٦٨). وهذا لا يعني ترك العنان للنفس لتعمل كل شيء ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمَمُّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)) (محمد ١٢). ((يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)) (الأعراف ٣١). وإن أهم أسباب الغلو هو الجهل بحقيقة الوسطية بل الجهل بمكانتها في الإسلام.

وفي السنة من الروايات ما يؤكد استقامة الرسول صلى الله عليه وسلم على منهج الوسطية ورفضه أن تكون هناك مغالاة في العبادة أو السلوك، منها:

- ١- «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المُنْبِتَ لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع، وقال: «لن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»^(٨).
- ٢- ومنها الدعاء: «وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَالْعَدْلَ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا»^(٩).
- ٣- ومنها: «أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكن أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١٠).
- ٤- ومنها حديث أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته»^(١١). وقالوا أيضاً قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا الحبل لزينب إذا فترت تعلقت به، فقال: «حُلُّوْهُ، فليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد»^(١٢). وفي الأخرى: «فإذا نَعَسْتَ فنامي».

٥- ومن المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي. فرأى سلمان أم الدرداء وهي شعثة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار، فقال سلمان: «إنَّ لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»، قال صلوات الله وسلامه عليه: «صدق سلمان».

٦- ومنها: ما جاء في وصية أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه لابنه الحسن عند وفاته: (واقصد يا بني في معيشتك، واقصد في عبادتك، وعليك بالأمر الدائم الذي تطيقه). وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وخط خطاً مستقيماً وخط منه وحوله تفرعات ثم قرأ: ((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)) (الأنعام ١٥٣).

الوسطية تعني إعطاء المواقف حقها في القرار العادل والصائب فهي الحزم عند أبي بكر في المسلمين عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وموقفه من المرتدين، وهي لين عمر عندما صعد المنبر واعترف بخطئه أمام امرأة.

قال وهب بن منبه: «إن لكل شيء طرفين ووسطاً، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوسط من الأشياء»^(١٣).

٧- عن أبي محمد عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنني أقول: والله لأصومنّ النهار، ولأقومنّ الليل ما عشت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت الذي تقول ذلك؟ فقلت له: قد قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: فإنك لا تستطيع ذلك، فصم، وأفطر، ونم، وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك: قال: فصم يوماً، وأفطر يومين، قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك. قال فصم يوماً وأفطر يوماً فذلك صيام داود صلى الله عليه وسلم: لا أفضل من ذلك، ولأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ من أهلي ومالي».

«إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً»^(١٤). وقال لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «يسراً ولا تعسراً - بشراً ولا تنقراً». «إن الدين يسر ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا»^(١٥) «إن خير دينكم أيسره» «إن الله رضي لهذه الأمة اليسر وكره العسر».

«إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز كراهية أن أشقّ على أمّه».

أولاً: تجليات الوسطية في بعدها السياسي

إن وجود الأحزاب السياسية في الظروف الحالية للمجتمعات الإسلامية ضرورة لتقدمها، ولحرية الرأي فيها، ولضمان عدم استبداد الحاكمين بالمحكومين (التوازن في العلاقة بين الحاكم والمحكوم)، وهو استبداد واقع في جلّ هذه المجتمعات أو كلها.

وفقه القواعد الأصولية الإسلامية يقوم - من بين ما يقوم عليه - على قاعدة عظيمة: وهي «عدم احتكار الحقيقة والقبول بالآخر». فهل يمكن أن تقوم قائمة لنظام سياسي إسلامي في العصر الحاضر وهو يُنكرُ على الناس اختلاف الرأي، وهو فطرة، أو وهو يُنكرُ على الناس حرية التعبير عن الرأي، وهي حق أزلي، أو وهو يُنكرُ على الناس التجمع لبيان ما يرونه حقاً أو يعتقدونه باطلاً، وهو أمرٌ ربّاني؟!

إن منطق المصلحة السياسية ومنطق القواعد الفقهية، والقراءة الصحيحة للنصوص والتاريخ، إن ذلك كله شاهد لضرورة التعددية السياسية من المنظور الإسلامي.

منطلقات ومبادئ الوسطية في المجال السياسي

وإذا كانت تجارب المشاركة الحزبية في العالم الإسلامي قليلة بالمقارنة مع عدد الدول ويرجع ذلك أساساً لسيادة أنظمة ديكتاتورية وغير ديمقراطية تصادر الحريات وتصادر حق الاتجاهات الإسلامية على الخصوص في تأسيس أحزاب سياسية تحت ذرائع متعددة فينبغي الإشارة والتأكيد أن بعض تلك الحركات لا تزال محكومة بمنطق الرفض وفكر الاعتزال والمقاطعة والنظر إلى الانخراط بالعمل السياسي باعتباره شركاً تنصبه الأنظمة لتتبع الحركات الإسلامية وإفراغها من محتواها. في حين أن البعض الآخر منها لا يزال محكوماً بمخلفات الصدام وآثار المناطحة السياسية التي قادت عدداً من قياداته ورموزه وأجياله إلى المحن والسجون والمنافي والاعتقال، في حين أن فريقاً ثالثاً لا يزال محكوماً بآثار الصدمة التي واجهها المسلمون في المشرق العربي على الخصوص بسقوط «دولة الخلافة»، ومن ثم توقف سقف فكرهم السياسي عند شعار إقامة «دولة الخلافة» دون أن يكون لديهم تصور معاصر لهذا المطلب يكشف تجلياته الواقعية وتنزيلاته الدستورية وفي مقابل ذلك تفاعل دعاة الوسطية مع واقعهم السياسي من خلال أعمال فقه الأولويات وفقه الموازنات وفقه المقاصد وتعاطت مع واقعها السياسي المحلي والجهوي والعالمي للدفع بتجربة المشاركة السياسية والحزبية وقطعت أشواطاً متقدمة في ذلك الاتجاه.

• ترجيح مبدأ المشاركة والمخالفة

الأصل عند الإنسان المسلم هو المشاركة لا المقاطعة، والمقاطعة والمنابذة كلاهما استثناء يقدر بقدره، ولا يشترط في المشاركة أن تؤدي إلى إزالة المفاصل كلها، بل إذا رجح أنها ستزيل بعضها أو تقلل منها كان الإقبال عليها أولى. فإذا لم تجلب تلك

المشاركة بعض المصالح فلا أقل من أن تمنع من اتساع دائرة المفسد انطلاقاً من القاعدة التي أشرنا إليها سابقاً: درء المفسد مقدّم على جلب المصالح.

• مبدأ التدرج

باعتباره سئة تخضع لها الظواهر الكونية والطبيعية والظواهر الاجتماعية أيضاً، فالأخذ بهذا المبدأ في مجال التعبير السياسي هو أولى حيث تتميز الظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية بطابعها المعقد. كما تثبت التجارب التاريخية أن السعي للقفز على هذه السئة كان مصير أصحابه الفشل والاصطدام بالواقع العنيد بحيث لا يخدم قضية الإصلاح بقدر ما يؤخرها حقبة طويلة.

• العمل في نطاق السعة وتحقيق الممكن التاريخي

ومن لوازم الأخذ بسئة التدرج العمل من أجل الإصلاح في نطاق السعة والممكن مع الإبقاء على وضوح الرؤية والمنهج وشمولية الأهداف، ومعناه أيضاً الاشتغال بدائرة التأثير والعمل على تحصين مكتسبات الأمة والحفاظ عليها وتوسيع دائرتها بدل الاشتغال بدائرة الاهتمام التي قد لا تعدو أن تكون أحلاماً وتمنيات قد تكون مشروعة ولكنها لا تدخل في نطاق الممكنات التاريخية.

والنتيجة تكون في هذه الحالة تضییع الفرص المتاحة وعدم ملء الفراغات والمساحات المقدور عليها وتركها للخصوم السياسيين والمناوئين المتربصين.

شروط نجاح منهج الوسطية في المجال السياسي

- أ- وجود حد أدنى من الانفتاح السياسي لدى الأنظمة الحاكمة وقبولها لحد أدنى من التعددية ومن الاعتراف بحق التوجهات السياسية في إنشاء أحزاب ذات مرجعية إسلامية.
- ب- أن تقبل تلك الاتجاهات بمبدأ التداول السلمي للسلطة واحترام قواعد العمل الديمقراطي كآلية لذلك التداول. ومعنى ذلك إقرار الطرفين بمبدأ الاعتراف المتبادل، لأنه لا سبيل للوجود السياسي الحزبي في إطار النفي المتبادل بين الطرفين والإقصاء المضاد أي الإيمان الحقيقي بالتعددية السياسية كخيار استراتيجي وليس خياراً تكتيكياً. كيف لا والإسلام يقر بالتعددية المذهبية والقومية والعرقية والثقافية داخل المجتمع المسلم.
- ج- إقرار الدول الإسلامية التي تنصّ دساتيرها على أن دينها الرسمي هو الإسلام على ذلك مهما تكن مظاهر الانحراف والمخالفة الظاهرة في الممارسات والمؤسسات على اعتبار أن الإقرار الدستوري بالإسلام ديناً للدولة هو شبيه بإقرار الفرد باللسان إذ يحكم لصاحبه بالإسلام ويطلب بعد ذلك بالعمل بمقتضياته.

نستطيع أن نحدد بعض النتائج المرجوة للوسطية في المجال السياسي في ما يأتي:

١- من بين المرجحات الموضوعية للمشاركة السياسية ذات المرجعية الإسلامية ذلك الموقف المناهض الذي تقابل به هذه المشاركة من لدن القوى المعادية لحق الأمة في الحرية والديمقراطية، بل منع قيام مثل هذه التجارب، وذلك حتى تبقى تلك الحركات هامشية موشومة بالصورة النمطية التي كوَّنها عنها الإعلام المعادي، إن ذلك كله يشهد لرجحان خيار الوسطية في المجال السياسي، ولذلك كانت الوسطية - فعلاً وممارسة - في الوسط السياسي محاربة ولا تزال، ويسعى خصومها دائماً إلى حشرها في الزاوية حتى يسهل دمع جميع تيارات الصحوة الإسلامية بالصورة التي تقدمها بعض المجموعات الغالية المعزولة القائمة على أساس فكر الغلوّ وسلوك العنف وذلك لتبرير الدكتاتورية وأحكام الطوارئ.

٢- نقل الصحوة الإسلامية من مرحلة الشعارات إلى مرحلة البرامج ومن فكر المواجهة والتدمير إلى فكر الإصلاح والتغيير ومن ساحات التنظير والفرار إلى مراكز الفعل وصنع القرار.

٣- ومن مقاصد خصوم الصحوة الإسلامية وتيار الوسطية السعي دوماً إلى حصرها في الهامش وحرمانها من الاحتكاك بالواقع والاقتراب منه والتعرف عليه في مفرداته وتعقيداته بما يترتب عن ذلك من إعمال الفكر والاجتهاد لإبداع الحلول له في نطاق أحكام ومقاصد الشريعة، ذلك أن رجال الصحوة الإسلامية إذا تمكنوا من هذا وأضافوه إلى رصيدهم من الأمانة والاستقامة الخلقية فإنهم ينالون بذلك ثقة مضاعفة من شعوبهم، وكان ذلك سبباً في فوات مصالحهم وامتيازاتهم وإظهار عورهم وفشلهم (ومن هنا فإن قوى الاعتدال أشد خطراً على أعداء هذه الأمة من قوى التطرف والعنف والعجز).

الإسهام في تقديم صورة عملية لإمكانية اقتران الممارسة السياسية والحزبية بالمبادئ والقيم الإسلامية في زمن ساد فيه الاعتقاد بأنهما نقيضان لا يجتمعان وأمران لا يتلازمان، وإعطاء شحنة من الأخلاق والقيم في الممارسة السياسية وهو ما نسميه نحن بالإسهام في تخليق الحياة السياسية.

ثانياً: الوسطية في البعد الاجتماعي والحضاري

- الإيمان بالتعددية الحضارية الثقافية التشريعية والسياسية والاجتماعية ((لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)) (المائدة: ٤٨).

- العمل على تنمية آفاق التواصل الحضاري، ومن ذلك الإفادة من الآخر في المنهج العلمي في التكنولوجيا الإدارية المتقدمة، وتجديد الإحساس بقيمة الوقت وقيمة العدل

- في ظل مناخ كريم، والدعوة إلى قيام شراكة إنسانية قديمة، قوامها التبادل العادل للمصالح، والسعي الجاد لخفض أصوات الغلاة من الطرفين.
- التأثير في الضمير الغربي تجاه مآسي المسلمين من منطلق إنساني، مثل الذي يحدث في فلسطين والعراق ونحوهما.
 - الدعوة إلى تأسيس فقه الأقليات المسلمة في مجتمع غير المسلمين على قاعدة (لا تكليف إلا بمقدور) أي على قدر السعة والطاقة بما يحقق للمسلمين الحفاظ على هويتهم دون انكفاء، والتفاعل دون ذوبان.
 - التركيز على المنظومة القيمية في علاقاتنا مع الآخر، والقائمة على وحدة الأصل الإنساني ومنطلق التكريم الإلهي للإنسان ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)) (الإسراء: ٧٠)، وإحياء مبدأ التعارف ((لِتَعَارَفُوا)) (الحجرات: ١٣)، وتعميق الأخوة الإنسانية (وأشهد أن العباد كلهم إخوة)، والتعامل بالبر والعدل مع المسالمين ((أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)) (المتحنة: ٨). والمجادلة بالتتي هي أحسن.
 - العمل على إيجاد القواسم المشتركة والإعلاء من شأن الأنساق المتفقة، فالحضارات تتقاسم أقداراً من القيم مثل العدل والمساواة والحرية.. الخ، وأهل الحكمة من كل ملة يستحقون الشكر والعرفان.
 - لا يرى الآخر (الغرب تحديداً) كتلة واحدة، بل يتعامل معه على أساس أنه دائرة واسعة الأرجاء، متعددة المنافذ، يمكن مخاطبتها بموضوعية لرعاية المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة، دون حيف أو ظلم لتحقيق الأمن والسلام العالميين.
 - تأكيد الالتزام الواضح بالحرية وحقوق الإنسان، ومشروعية الخلاف الفكري والتعدد الديني والثقافي والتداول السلمي للسلطة، والدفاع عنها بوصفها أساساً من مبادئ الإسلام، ونبذ العنف في العمل السياسي دون خلط له بالجهاد.
 - الدعوة إلى إحياء مبدأ التساكن الحضاري، واستكمال التوازن المفقود في الحضارة الغربية بالأساس الأخلاقي والبعد الإنساني عبر قدوة ذات مصداقية، يتطابق فيها المثال والواقع، ويكون بدلالة الحال أبلغ من دلالة المقال.
 - العمل على الإسهام في علاج مشكلات المجتمعات الأخرى خاصة المجتمعات الغربية. من انحلال أسري وتفكك اجتماعي، وانهيار أخلاقي وانحراف جنسي وتعصب عرقي، والعمل على إبراز تلك الإسهامات.
- كما أوصى القرآن بجدال أهل الكتاب بالتتي هي أحسن ((وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) (العنكبوت: ٤٦).

أما عن الآيات التي وردت عن النهي عن موالاة غير المسلمين أو غير المؤمنين فتحكمها ضوابط عديدة منها:

- ١- إن النهي ليس عن اتخاذ المخالفين في الدين أولياء بوصفهم شركاء وطن أو جيران دار أو زملاء حياة، وإنما هو نهى عن توليهم بوصفهم جماعة معادية للمسلمين، تتخذ من تحيزها الديني لواء تستجمع به قوى المناوئة للمسلمين والمحادّة لله والرسول.
- ٢- إن المودة المنهي عنها هي مودة المحاربين لله ورسوله، لا مودة مجرد المخالفين ولو كانوا سلماً للمسلمين.
- ٣- إن غير المسلم الذي لا يحارب الإسلام قد تكون مودته واجبة وصلته فريضة دينية، وذلك شأن الزوجة الكتابية وأهلها الذين هم أحوال أبناء المسلم وجدته وجده.
- ٤- إنه لا شك في أن الإسلام يُعلي الرابطة الدينية على كل رابطة سواها، ولكن ذلك لا يعني أن يُلقي المسلم بالعداوة إلى غير المسلم لمجرد المخالفة في الدين أو المغايرة في العقيدة، والاستثناء - عندما تقوم دواعيه وأسبابه - أن يتمتع المسلم عن موالاتهم أو مودتهم، انتصاراً لدينه، وانحيازاً لأهل عقيدته.

لقد باشر النبي صلى الله عليه وسلم رئاسة الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة بعد هجرته إليها، حيث أمر بكتابة الصحيفة التي تنظم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين من سكان المدينة والتي عرفت باسم «صحيفة المدينة» أو «دستور المدينة».

وجاء في الصحيفة أن «المؤمنين أمة من دون الناس»، وأن «اليهود أمة مع المؤمنين» وأن «أهل الصحيفة بينهم البر دون الإثم» وأنهم يكونون «يبدأ على من دهم يثرب» وأن «اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» وأن بينهم «النصر والأسوة» وهو هنا بمعنى المساواة وأنه «ما كان من حدث بين أهل الصحيفة أو اشتجار يخاف فساد فإن مرده إلى الله تعالى وإلى محمد رسول الله» وأنه «لا يخرج من أهل المدينة أحد إلا بإذن محمد» وأن أهل الصحيفة «يتعاقلون معاقلمهم الأولى بالقسط بين المؤمنين بالمعروف» إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرت تفصيلاً في مواضعها من كتب تاريخنا وكتب الحديث، وكتب الوثائق النبوية وكتب النظام السياسي الإسلامي المقارن، فهذه الوثيقة تجعل غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين فيها لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين، وهذه الصحيفة هي أول دستور مدون في التاريخ كله لم يسبق إلى مثله أحد ولم ينسج على منواله أحد، إلى أن صنع الإنجليز بعد ثورتهم في سنة ١٢١٥م وثيقتهم التي سموها (العهد الأعظم).

وعلى أساس نصوص هذه الوثيقة النبوية مضت الحياة في المدينة المنورة إلى أن نقضت اليهود العهد ((أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ)) (البقرة: ١٠٠)، وهم يقولون عن الناس كافة ((لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)) (آل عمران: ٧٥) وكان بعد نقضهم العهد أن تم طردهم من المدينة المنورة ثم من جزيرة العرب كلها.

١- علاقة المجتمع الإسلامي بغير المسلمين

تجدر الإشارة بدءاً إلى أنه وجب التمييز بين الموقف العقدي للإسلام من الديانات والعقائد الأخرى، حيث يقوم هذا الموقف على مجادلة التصورات الأخرى ونقدها وبيان زيفها، وبين الموقف العملي والسلوكي تجاه أهل الديانات الأخرى، إذ يقوم هذا الموقف على ضمان حقهم في الاعتقاد والعبادة. وفي المقابل أفسحت الحضارة الإسلامية مجالاً واسعاً لأهل الديانات الأخرى لمجادلة العقيدة الإسلامية أيضاً، وهو ما ولد علماء قائماً بذاته ألا وهو «علم المناظرة».

أما على المستوى العملي، فإن القاعدة الأساسية التي تحكم نظرة الإسلام لغير المسلمين، ألا وهي مبدأ المواطنة الكاملة، والذي يتضمنه قوله تعالى: ((لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)) (المتحنة ٨). هذه القاعدة السلوكية مبنية على مجموعة أخرى من الأصول والأحكام التي يمكن تحديدها في ما يأتي:

١- تأكيد الإسلام لسنة الاختلاف

الاختلاف في الإسلام سنة كونية ما فتى القرآن يثير انتباه المسلمين إليها؛ اختلاف في مظاهر الكون، واختلاف في البشر وفي أجناسهم وألسنتهم وألوانهم؛ اختلاف في الألوان والأطعمة... اختلاف في العقائد والتوجهات والمذاهب. فالاختلاف سنة لا سبيل إلى إلغائها وتجاوزها، بل ينبغي فهمها وإحسان التعامل معها.

قال تعالى: ((وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)) (هود ١١٨ - ١١٩).

وقال: ((لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)) (المائدة ٤٨).

وقال: ((وَلِكُلٍّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا)) (البقرة ١٤٨).

٢- تقرير مسؤولية الإنسان في شأن الاختيار العقدي والديني

يقرر الإسلام أن الإنسان مسؤول مسؤولية ذاتية عن اختياره الديني والعقدي، ومن ثم فإن منهج الدعوة ليس هو سبيل الإكراه أو السيطرة، وإنما هو العمل على تحرير العقول من الأوهام ورفعها إلى مستويات من الإدراك والتعامل الحر؛ لا استعباد الناس حتى وإن كان ذلك من أجل مصلحتهم.

((فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)) (الغاشية ٢١ - ٢٢). ((وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٍ)) (ق ٤٥). ((فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

فَلْيَكْفُرْ)) (الكهف ٢٩). ((أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)) (يونس ٩٩). ((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)) (البقرة ٢٥٦).

وقد ورد في مناسبة نزول هذه الآية الأخيرة أن الأنصار كانوا في الجاهلية إذا كانت منهم امرأة لا يعيش لها ولد، تنذر إن عاش لها ولد أن تهوّد، فلما جاء الإسلام وأسلموا كان كثير من أبناء الأنصار يهوداً فقالوا لا ندع أبناءنا بل نكرهم على الإسلام، فنزلت الآية.

٣- الدفاع عن حرية المعتقد

اعترفت الشريعة الإسلامية، منذ البداية للإنسان بحرية المعتقد، وهو ما لم تتوصل الهيئات الأممية إلى إقراره إلا في القرن الأخير. ولم يكتف الإسلام بإقرار حرية المعتقد للناس جميعاً، بل سيّج هذا الحق بضمانات كثيرة تصل إلى إعلان الجهاد ضد الطغاة والجبارين الذين لا يحترمون هذا الحق. قال تعالى: ((أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَأَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)) (الحج ٣٩-٤٠).

وهكذا يقرر هذا النص القرآني أنه لولا مقاومة بعض الناس، وهم المؤمنون، لبعض الناس، وهم الظالمون، لهذمت «صوامع»، وهي معابد الرهبان و«بيع» هي كنائس النصراني، و«صلوات» أي كنائس اليهود، و«مساجد» أي مصليات المسلمين. وهو يقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد تأكيداً لدفع العدوان عنها، فهي إذن دعوة إلى ضمان حرية العبادة للجميع وليس للمسلمين وحدهم، ويكلف المسلمين بالدفاع عن هذا الحق للجميع، ويأذن لهم بالقتال من أجل ذلك.

٤- تقرير مبدأ الكرامة الإنسانية

يقرر الإسلام كرامة الإنسان، من حيث هو إنسان بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين، حيث يقول القرآن: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)) (الإسراء ٧٠).

إنهم إذن أعزة في ذواتهم، ولهم مكانة متميزة عن غيرهم من المخلوقات، وذلك مرتبط بأصل آدميتهم لا باختيارهم العقدي، مما يعتبر إدانة للتمييز العنصري والعرقى أو الديني.

٥- إقرار مبدأ التعارف والتساكن والتعايش

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) (الحجرات ١٣).

يدعو الإسلام إلى التجمع والتعايش والتساكن وتبادل المنافع والمصالح في أخذ وعطاء، وفي تأثر وتأثير دائمين، بعيداً عن أية عصبية جنسية أو عنصرية إقليمية أو نعرية ثقافية، إذ لا فضل لأحد على أحد إلا بالأعمال الصالحة.

٦- أصل القسط والبر مع المخالفين في الدين

يؤكد الإسلام على ضرورة الإحسان والعدل في العلاقة مع المخالفين في الدين، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ((لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)) (المتحنة ٨). وقال: ((وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِنَّمَا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّمَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلُوا أَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) (العنكبوت ٤٦).

وقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة».

وبعث الخليفة عمر بن الخطاب لعمر بن العاص، عامله على مصر، يوصيه بالأقباط خيراً، ويقول: وإن معك أهل الذمة، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال: وأن استوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة». فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً، فإن من خاصمه فالله خصمه.

حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي

تلك بعض الأصول التي تؤسس لمبدأ التسامح في الحضارة الإسلامية، وهي الأصول التي كان لها أكبر الأثر في تعامل المسلمين مع غيرهم داخل المجتمعات الإسلامية وفي ضمان حقوقهم، ولا يتسع المجال للتفصيل في بيان هذه الحقوق، ولكن نكتفي بإشارة مقتضبة.

فمن هذه الحقوق التي تنص عليها كتب الفقه الإسلامي:

١- مباشرة التصرفات المالية من بيع وشراء وامتلاك والتصرف فيها حسب مقتضيات القانون.

٢- التمتع بالمرافق العامة للدولة كالمواصلات ومشروعات الري والإنارة ومياه الشرب ونحو ذلك.

٣- كفالة الدولة لهم في حالة العجز عن العمل أو إن لم يجدوه أو قصر عملهم عن تحصيل كفاءتهم، ففي كتاب خالد بن الوليد في صلحه مع أهل الحيرة يقول: وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام.

٤- تمتيعهم بالحقوق والحريات، مثل حرية الخطابة والكتابة، الرأي والاجتماع والاحتفال وإظهار شعائرهم، والحق في انتقاد الحكومة وعمالها ورؤيسها.

٥- الحق في تولي الوظائف، ما عدا الوظائف التي لها طبيعة دينية خاصة في المجتمع الإسلامي؛ مثل الإمامة وقيادة الجيش، لأن الإمامة في الدول الإسلامية نيابة عن صاحب الشرع وحراسة الدين والدنيا. وهكذا أباح الفقهاء تولي غير المسلمين لوزارات التنفيذ وغيرها من الوظائف. فقد عين النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري، وهو غير مسلم، سفيراً له في الحبشة. كما سمى عدداً من المشركين في عدد من الوظائف، مثل تعليم القراءة والكتابة والقيام بمهام استعلامية. ونفس الشيء بالنسبة إلى عمر بن الخطاب الذي سمى في ديوانه عدداً من الكتبة الذميين. وذلك ما لاحظته «آدم متر» وعجب له حيث قال: من الأمور التي نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين من غير المسلمين في الدولة الإسلامية.

٦- الدفاع عنهم إذا تعرضوا للظلم ولو كان ذلك بالقتال، والسعي في إطلاق سراحهم إذا تعرضوا للأسر. وفي ذلك يقول العلامة الأندلسي ابن حزم: إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه؛ وجب علينا أن نخرج بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صوناً لما هو في ذمة الله وذمة رسوله. (المحلى لابن حزم).

والتسليم بالتعددية البشرية تبعاً للتسليم بحق الاختلاف يقود بغير جهد كبير إلى التسليم بحق التعددية في المذهب السياسي. ولا يجوز للدعاة إلى إصلاح سياسي يستند إلى الإسلام أن تغيب عنهم حقيقة يشهد بها تاريخ البشرية في مختلف أديانها: أن أسوأ صور الظلم وأفدحها، وأبشع حالات الطغيان وأفساها، ما كان مستنداً إلى نظرة دينية يُساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة بتأويلها على وفق أهواء الظالمين، أو يدس فيها على الدين ما ليس منه لتحقيق نزواتهم، والقضاء على خصومهم. وهذه الحقيقة تجعل بيان جوهر الموقف الإسلامي من التعددية السياسية باعتبار حق الاختلاف حقاً إنسانياً أصيلاً ألزم الآن منه في أي وقت مضى.

ونشير في هذا السبيل إلى حقيقة قيام البناء الاجتماعي في الإسلام على الجوانب المادية والروحية معاً؛ لأنه في النهاية يعني شعور الجميع بمسؤولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه، يُسأل عن نفسه ويسأل عن غيره. ولهذا كان للتكافل الاجتماعي الذي يحفظ البناء الاجتماعي شعبتان: شعبة مادية: وسبيلها مدّ يد المعونة في حاجة

المحتاج وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، والإسهام العملي في إقامة المصالح العامة وقد أطلق الإسلام على هذا النوع من التعاون المادي عناوين مختلفة تشمل أنواعاً مختلفة من العلاج والتكافل مثل (الإحسان - الزكاة - الصدقة - الحق المعلوم - الإنفاق في سبيل الله - كفالة اليتيم - صلة الأرحام.. الخ). وشعبة أخلاقية قوامها تكافل المسلمين جميعاً وتعاونهم المعنوي بالتعليم والنصح والإرشاد والتوجيه.. أو بإيجاز: التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولاً وفعلاً.. والإسلام يجعل هذا التكافل الأدبي فريضة لازمة على كل مسلم، بل جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أنه الدين كله بالنسبة إلى جميع الطبقات. «الدين النصيحة» قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم..». أما حقوق الأقليات، لقد كان تعبير الأقليات الدينية والمذهبية والعرقية عن خصوصياتها الثقافية أحد سمات عصر النهضة في الإسلام - الذي سبقت الإشارة إليه - وذلك ضمن إطار الوحدة الجامعة لدار الإسلام. في حين أن الطائفية والافتئات على حقوق الأقليات كان أحد ظواهر عصر الركود. وإن إقرار حق المواطنة غير المنقوص لهذه الأقليات في ظل الدولة القطرية اليوم، ربما كان فيه خروج على اجتهاد الفقهاء، لأن (الذمة) مرتبطة ب (العهد) أو المعاهدات بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى.

مضامين ودلالات

إن دعاة الوسطية ينظرون إلى واقع البشرية اليوم، وملء نفوسهم يفيض مشاعر اعتزاز لا تحدّ، وآيات تقدير لا تعد، يكونونها لهذا الدين، ولماضيه التليد، وإرثه المجيد، وهديه الرشيد، ويتوقون ليوم تسعد فيه البشرية بقيادة الإسلام لركبها: تحقيقاً للعدل، وحماً للكلّ، ونشراً للسلم وردعاً للظلم، فالمسلمون ما فتئوا - في وقت الاستضعاف وشيوع الظلم والإجحاف - يرتكزون على اعتزازهم بهذا الدين، وما به من قيم حق وعدل وفضيلة، فيزداد إيمانهم وتقوى إرادتهم، ويتحملون الصعاب ويبدلون الجهد فيغير الله ما بهم من حال، فإذا أورثهم الله الأرض ومن عليها، لم يُر منهم استعلاء ولا تكبر ولا بطر للحق ولا غمط للناس، ولا «تصفية لحسابات قديمة»، والتاريخ يشهد بذلك منذ فتح مكة وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأهلها الذين آذوه وأرادوا قتله: «أذهبوا فأنتم الطلقاء». مروراً بما فعله المسلمون عندما هزموا التتار الذين دمروا بغداد ومشوا بالفساد، فما عرف التاريخ أن المسلمين ثأروا لأنفسهم بعد انتصارهم، بل عفوا وأصلحوا كما أمرهم ربهم وحققوا معنى الوسطية.

كما أن هذا التسامح الكريم، والتعامل الشريف، والمخالقة النبيلة، التي يبديها الإسلام للمخالف لا يجوز أن ينظر إليها في إطار غير إطارها، فيظن بالإسلام وأهله ضعفاً وهواناً يفضي بهم إلى أن يذوبوا في غيرهم من الكيانات البشرية، التي تمثل حضارة غير حضارتهم، وتوجهاً غير توجههم، فالمسلمون أمة قائمة برأسها، تتمتع بخصائصها الذاتية المتميزة، يؤمنون بمشروعية

الاختلاف ويرفضون الإقصاء ويؤمنون بحق الآخر في الوجود، فهم كما وصفهم رسولهم الكريم: «أمة من بين الأمم تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

إن العالم المعاصر يعيش في فوضى فكرية تتمثل في تغيير المفاهيم، وقلب المعايير، وازدواجية المكاييل، ومحاولة تشويه صورة المسلمين وحضارتهم، والمساس بمقدساتهم وقيمهم وأخلاقهم، والإساءة للإسلام فكراً وممارسة.

ولذلك جاء تأسيس المنتدى العالمي للوسطية لرسم المنظومة الفكرية الإسلامية المتكاملة ولتأكيد دور الأمة الإسلامية وعطاءات حضارتها الإنسانية المتنوعة تجلية للصورة السمة وتجليات المسلمين في كل عصر من عصور الحياة البشرية، وتأصيلاً فكرياً وشرعياً لمنهج الوسطية والاعتدال، تلك الوسطية التي تمثل نهجاً حضارياً، وإطاراً فكرياً وأنموذجاً يحتذى، ومثالاً يقتدى.

ولإيماننا العميق في منتدى الوسطية بأن إعادة إحياء منهج الاعتدال يتطلب تأكيد أهمية المنهج الوسطي بين أبناء أمة الإسلام نفسها، والتعريف بالإسلام بقيمه الإنسانية لدى شعوب العالم كافة، والتواصل الحثيث القائم على قيم الحوار والتسامح ونبذ العنف لرسم منظومة فكرية متكاملة تعتمد الرؤية الوسطية فكراً وارتكازاً استراتيجياً مستديماً، وليس تكتيكاً مرحلياً. ولأن تيار الوسطية والاعتدال يحمل على عاتقه الإسهام في مسيرة إصلاح الأمة من خلال المراجعات الفكرية والتي يتصدى لها العلماء والمفكرون وقادة الرأي الذين يعبرون عن أصالة الفكر المعتدل المتزن، لتعميق التواصل بدل التقاطع والتدابير، وإحلال الائتلاف مكان الاختلاف، وتعميق معاني الحب والتآلف والتعايش، ليكون هذا التيار تياراً جامعاً موحداً لها على طريق النهضة، يؤكد على منعة الأمة بتوحيد قادتها ونخبها الفكرية على قاعدة خيارات الشعوب وضرورات الحكام.

لقد شهد القرن العشرون سلسلة حركات إسلامية تولت الإجابة عن أسئلة النهضة وشروطها، تناغمت وتواصلت في أطراف العالم الإسلامي واتخذت طابعاً تنويرياً أوصى بدور أكبر للعقل في فهم النصوص وتأويلها، وتوضحت ملامح التنوير في الخطاب الإسلامي من خلال طرح الإسلام رسالة تسامح ومحبة، يصدق ما بين يديه من النبوة والحكمة، ويحترم كفاح الإنسان من أجل العدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

وفي وقت واحد تقريباً ظهرت حركة محمد عبده وجمال الدين الأفغاني في مصر وعبد الرحمن الكواكبي في سوريا والحركة المهدية في السودان واكتمل ذلك بأعمال مالك بن نبي في الجزائر ومحمد إقبال في باكستان، ومحمد الغزالي في مصر، وعدد من المشاريع التنويرية التي تشكل ظاهرة الصحوة الإسلامية الجديدة.

وفي هذا السياق يمكن فهم مشروع الوسطية الذي أطلقه منتدى الوسطية للفكر والثقافة في عمان قبل سنوات ووجد حاضنته الفكرية من خلال عدد من رموز العمل الإسلامي في البلاد العربية.

وعلى الرغم من أهمية هذا المنطلق الفكري للوسطية، فإن ما حثّ تسريع الجهود في هذا السبيل هو تلك التطورات المتسارعة التي شهدتها العالم الإسلامي في السنوات الأخيرة، فقد تفجرت العلاقة داخلياً بين الأنظمة وبعض التيارات الإسلامية وخارجياً بين الإسلام والغرب كنتيجة مباشرة لمظالم الغرب وأخطاء السياسة الأمريكية في انحيازها الكامل للمشروع الإسرائيلي المدمر للأمة العربية والإسلامية، الأمر الذي شد من أزر قوى التشدد والتطرف ومن ثم أسهم بشكل مباشر في فصم العالم إلى فسطاطين متناقضين لا يتصور أي جمع بينهما.

وهنا تتجدد الحاجة إلى تكوين تيار وسطي يؤمن بثوابت الإسلام الكبرى ويطلق رسالة التجديد والتنوير على أساس من المصالح العليا للأمة الإسلامية.

من أجل ذلك كانت هذه المبادرة من المنتدى العالمي للوسطية، والذي يحتضنها اليوم بهدف البحث في تأسيس هذه الحاضنة الفكرية الإسلامية الرائدة التي تؤمن بكفاح الإنسان وتنتهج الحوار والتكامل مع كل سعي نبيل يهدف إلى بناء علاقة صحيحة بين الإسلام والحياة.

يتأسس الفكر الوسطي على قاعدة عريضة رسمها القرآن الكريم ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) (البقرة: ١٤٣) كما وجد الإسلام في رسالته الأولى سبيلاً للتكامل مع كل سعي إنساني مبرور أتى كان منطلقه في الجغرافيا أو التاريخ أو الحاضر.

وهي حقيقة عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)) (البقرة: ٦٢).

إن الأمل الذي هذه النخبة إلى أن تكون حاضنة صحيحة وعملية لدعاة الفكر الوسطي المعتدل الذي يرى في الإسلام مشروعاً يتكامل مع السعي الإنساني وليس نقيضاً له، ويتحمل مسؤولياته في مواجهة التطرف والتعصب سواء ظهر عبر المشروع الصهيوني المدمر أو الحركات الخوارجية المتطرفة التي استحلت قتل العباد ونهب البلاد في سبيل إنجاز أفكارها السياسية.

لقد واجهت الوسطية الإسلامية الأولى المشروع الخوارجي الذي أطلق القول بتكفير الأمة واستحل دماءها، وإلى جانب المواجهة العسكرية مع التطرف وتبعاته في المشروع الخوارجي فقد أطلق فقهاء الأمة جملة من المواثيق الواضحة بهدف حماية المسلم في دمه وماله وعرضه ومنعت التعرض لأهل القبلية مهما ظهر منهم الاختلاف في الرأي، في حين نظمت علاقة المسلم مع أبناء الأديان الأخرى على قاعدة الحوار والاحترام مع أهل الكتاب وسّدت في نظرائهم سنة أهل الكتاب، ووفرت للمختلفين دينياً وثقافياً فرصة المشاركة في بناء الدولة والحياة إلى الحد الذي مكنهم من المساهمة بوضوح في بناء الحضارة الإسلامية.

إن الوسطيين في العالم الإسلامي اليوم هم الأكثرية الصامتة التي تتشكل منها المجتمعات ويجد المسلم نفسه بالفطرة رافضاً للتطرف والتعصب والانفلات والتسيب، ومن خلال القرآن والسنة فإن المسلم قادر على فهم معنى قول الله سبحانه: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)) (الأنبياء: ١٠٧).

ولكن يجب القول إن التيارات المتشددة تولت تقديم أدلة من ظاهر النص شوشت على المسلمين صفاءهم الأول وأعدت الجدل في مسألة العلاقة بالآخر المختلف فكرياً حيث يتم على سبيل المثال إطلاق القول بمظاهر كثيرة من الشرك في الأقوال والأفعال ثم يتولى فريق آخر تقديم تأويل ظاهري للنص ((فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)) (التوبة: ٥) وبذلك أريق دماء وأرواح كثيرة وشهد العالم الإسلامي ارتفاعاً غير مسبوق في إراقة الدماء وانتهاك الحياة وقدم الأدلة لأعداء الأمة لوصم هذا الدين بالعنف والجبر والكراهية.

ويتحمل هذا الملتقى مسؤولية الربط بين نشاطات التواصل والتكامل بين الحركات المعتدلة في البلاد العربية التي تتبنى الخطاب الإسلامي المستنير ولا ترى فيه نقيصاً لما أنجزه الإنسان في سعيه الحضاري، ومن ثم لبناء شبكة علاقات تكاملية لتعزيز صوت الاعتدال والتسامح ليعيش الناس بأمن وسلام.

ولأن العالم الإسلامي يمر بمحنة صعبة وامتحان عسير، وبسبب جهل بعض المسلمين بحقائق الإسلام، اهتزت الهوية الإسلامية، وحصل الجنوح إلى أعمال تعدّ رد فعل عكسياً متعيّناً لسوء أعمال المعتدين والمحتلين والمتعصبين الحاقدين على الإسلام، والجاهلين بمبادئه وأنظمتها والتسبب بارتكاب إساءات فكرية وسلوكية، واعتداءات متكررة على بعض الدول الإسلامية والعربية، كانت هناك ضرورة لتوضيح الوسطية في الإطار والمضمون.

أهمية تعميق منهجية الوسطية

موضوع الوسطية، والتوازن، والاعتدال من الموضوعات التي ينبغي أن يعنى بها السياسيون والعلماء والمربون لاضطراب الموازين عند الكثيرين من أبناء المسلمين ما بين غالٍ متشدد وجاف مفرط، ومما يبين أهمية الموضوع ما يأتي:

١. إن التوازن في الشخصية مطلب إنساني فطري وشرعي، ومبدأ تربوي إذ جاءت النصوص من الكتاب، والسنة أمرة به محذرة مما سواه من الإفراط والتفريط.

٢. إن التوازن، والوسطية، والاعتدال صفة الفطرة والمنهج الإسلامي في عقائده وتشريعاته، وهي الأنسب للإنسان، وإمكاناته، وتناسب مع ضعفه، وعجزه، وقدرته، ولهذا فالخروج عن الوسطية ابتداءً في الدين، وخروج عن المنهج الرباني القويم.

٣. في عرض هذا الموضوع علاج للمتمحس الغالي، والمتباطئ المتناقل الجافي، فيحذر الأول من مغبة غلوّه، ويخوف الثاني من عاقبة تقصيره، وتفريطه.

٤. بروز ظاهرة الشطط عند البعض ما بين غالٍ متشدد، ومفرط متساهل والتي أخذت مجالات عدة سواء كانت في العقائد، أو في السلوك والأخلاق والسمات، وهذا كله يحتاج إلى تأكيد مبدأ التوازن، والوسطية في شخصية المسلم لكي تتضح معالمها في أذهان الناشئة.

٥. إن التوازن، والوسطية غاية كل مسلم، ومطلب كل مؤمن إذ يقول في كل ركعة ((إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)) (الفاتحة: ٦) وهو الوسطية التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وسار عليها خلفاؤه من بعده.

٦. إن ظهور تيار الوسطية يعني الإنجاز والتخطيط الاستراتيجي البعيد عن الارتجال في الشروع في النهضة الحضارية للأمة وخروجها من مأزقها ومواجهة أعدائها.

وعليه فإن من أبرز وسائل بناء الفكر الوسطي ما يلي:

١- تقرير ومناقشة المعنى الصحيح للوسطية، وأنها لا تعني التنازل عن ثوابت الأمة وعقيدتها، وتبيين أن القرآن والسنة بيّنا معنى الوسطية وطريقها، وأنها هي الصراط المستقيم، وإنشاء المراكز والمننديات التي تباشر ذلك.

٢- مناقشة الأمور، والقضايا المثارة في الوقت الحاضر التي سببت الاختلاف، والفرقة، وطرحها الطرح الشرعي المؤصل بالطرق المقنعة والحوار الهادف.

٣- تبيين مخاطر الغلو والإفراط على الأمة، وأن ذلك لا ينبع إلا من قلة العلم، والجهل، وضعف التأصيل، وغياب المرجعية.

٤- تبيين مخاطر الجفاء والتفريط، وأن ذلك الأمر إذا فشا وذاع كان خطره على الأمة جميعاً، فلا بد من إدراك السفينة حتى لا تغرق.

٥- تبيين أن الطريق المستقيم (الذي هو الوسطية) في أمور وقضايا الأمة لا بد أن يكون من مرجعية موثوقة تتأكد حاجتها إلى مواكبة العصر والتواصل مع مختلف المجامع الفقهية، وتفعيل الاجتهاد، والاستفادة من المختصين في العلوم الأخرى، وتأسيس مراكز للدراسات، والبحوث العلمية المساندة للفتوى، وتكوين لجان للفتوى في مختلف الأمور والنوازل.

٦- إن مرحلة الشباب مرحلة تغلب عليها العاطفة، وسرعة الانفعال والتأثر فلا بد من النظر بعين الاعتبار لاستغلال هذين العاملين في توجيه الشباب نحو النافع لما يخدم مصالح الأمة، ويعيد لها مجدها.

٧- طرح ومناقشة حال الفرق التي ضلّت بسبب الغلو والإفراط وتكليف طلاب العلم القيام ببحوث في ذلك، مع مراعاة القدرة على مناقشة ودحض الشبه والافتراءات.

٨- الممارسة العلمية الواقعية لمنهج الوسطية من قبل العلماء وطلاب العلم والدعاة، مما يتيح للطلاب أن يروا القدوة الصالحة التي هم في أمس الحاجة إليها.

٩- تربية النشء على هذا المنهج تربية عملية شاملة، مما يقضي على الخلل الموجود في محيط المجتمع المسلم سواء أكان إفراطاً أم تفريطاً.

١٠- تصحيح وتبيين أن هناك لبساً في فهم الوسطية، وممارساتها من قبل بعض الجماعات والدعاة، وهذا اللبس أدى إلى أنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فرأينا التنازل مع الأعداء باسم المصلحة، وضعفاً في حقيقة الولاء والبراء بحجة تأليف القلوب والدعوة إلى الله، ومصانعة لبعض الظالمين بدعوى دفع الشر والفتنة، وهكذا. ولذلك لا بد من تصفية المنهج مما علق به ليكون وفق الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

١١- تربية النشء على أهمية الحوار كوسيلة للتعبير عن الرأي وأسلوب للحياة، وتأطيره لتحقيق التعايش من خلال منهجية شاملة تلتزم بالأصول، والضوابط الشرعية.

١٢- إفهام الناس أن الاختلاف والتنوع الفكري سنة كونية، وحقيقة تاريخية، لذا لا يمكن إلغاؤه وتجاوزه، وإنما يخفف من آثاره الضارة اعتماد منهج القرآن الكريم في الحكم على الآراء والأشياء والأشخاص بتحري الحقيقة، والموضوعية، والعدل والتعايش مع هذا الاختلاف وضبطه، والتفريق بين الثوابت والاجتهادات في مجال التنوع والاختلاف وتحديد مرجعيته بالكتاب والسنة.

١٣- ترسيخ وممارسة ضمان حرية التعبير عما يراه المسلم حقاً وفق الضوابط الشرعية المعتمدة بما لا يتعارض مع محاسبة من يمس الثوابت الشرعية، والمصالح المتفق عليها، أو حريات الآخرين.

١٤- ضرورة إفهام الناس لاستيعاب الظروف الإقليمية والدولية ومراعاتها واتباع المصالح القائمة على العدل في تأسيس العلاقات الدولية والاستفادة من الطاقات العلمية والفكرية في تأصيل العلاقات الدولية على منهج الإسلام، وطرح المبادرات التي تبين حلول الإسلام للمشكلات العالمية.

هذا ويهدف المنتدى العالمي للوسطية حسب نظامه إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١- بناء منظومة وشبكة عالمية للعلماء الموثوقين الذين يشكلون هيئة عالمية ومنتدى دولياً للوسطية ويتصدون إلى تحقيق الأهداف الآتية: توضيح مفاهيم الوسطية الإسلامية بين أبناء الأمة ومؤسساتها وتعزيز قدرة الأمة على القيام بدورها الحضاري من خلال وسطيتها.

٢- نشر رسالة الأمة الوسطية والتعريف بها بين الأمم والشعوب.

- ٣- التصدي لمشكلات الأمة وتقديم التصورات والبرامج والحلول لتجاوزها من خلال الرؤية الوسطية الإسلامية.
 - ٤- تعزيز قيم الحرية والعدالة وكافة حقوق الإنسان والدفاع عنها وذلك باعتبارها من أسس رسالة الوسطية الإسلامية.
 - ٥- الدعوة إلى الكلمة السواء بين الأمم والشعوب وما يحققها من التسامح والاحترام والحوار ونبذ العنف والعدوان.
 - ٦- معالجة ظواهر الغلو والتطرف والإرهاب أى كان مصدرها من خلال الحوار والإقناع الذي تتمظهر من خلاله.
 - ٧- تعزيز دور المرأة المسلمة في بناء المجتمع وتعزيز مساهمتها في النشاط الفكري والثقافي.
 - ٨- بناء منظومة فكرية متكاملة تعتمد الرؤية الوسطية وتشمل كافة مناحي الحياة الإنسانية.
 - ٩- تعزيز نقاط الالتقاء وجوامع الاشتراك بين الأمم والدول والجماعات والمؤسسات والنظريات بما يحقق الوئام والسلام في الأرض.
 - ١٠- إقامة أصرة تعاون والتقاء و تشاور وتكامل بين كافة القوى والشخصيات الإسلامية الحاملة للواء الوسطية عبر العالم .
 - ١١- نشاء مرجعية فكرية تنضج الأفكار والبرامج الوسطية وتتكامل مع المشاريع الإسلامية المطروحة ، وتحقق للأمة مرجعية ذات مصداقية موثوقة .
 - ١٢- يعمل المنتدى على الحفاظ على الهوية الإسلامية للأمة لتبقى دائماً أمة وسطاً، شهيدة على الناس، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر.
 - ١٣- يعمل المنتدى بجميع الوسائل المشروعة، لمواجهة التيارات الهدامة والدعوات المعادية للإسلام، والأخطار الثقافية، داخلية كانت أم خارجية، بنشر الفكر الإسلامي الوسطي.
 - ١٤- يعمل المنتدى على مواجهة الغلو في الدين والانحراف في تأويل نصوصه، بما تمليه وسطية الإسلام وسماحته وشموله: عقيدة وشريعة وعبادة ومعاملة وفكراً وسلوكاً.
 - ١٥- يعمل المنتدى على توحيد قوى الأمة بمختلف مذاهبها واتجاهاتها، وتوحيد جهود العلماء ومواقفهم الفكرية والعلمية، في قضايا الأمة الكبرى لتواجه التحديات صفاً واحداً.
- اللهم هذا هو الجهد المقلّ فإن أحسنت فبتوفيقك وفضلك وإن أسأت فبعجزى وضعفى فاغفر لي وتقبّل مني.
- والسلام عليكم أيها الأساتذة الفضلاء والسادة الأجلاء ورحمة الله وبركاته.